

# متنوعات

## المغرب خلال فترة الحماية الفرنسية: رمزية ومفهوم خطاب "السياسة البربرية"

منعم بوعملات

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية

*In the period extending between 1912 and 1956, the French protectorate administration in Morocco was interested in the question of indigenous management among other things. To achieve the best indigenous management possible, it relied on a vision whose central thrust is the assimilation of the human factor in an overall colonial project. The French protectorate realized that the submission of the population both militarily and politically is the prelude to the domination of the indigenous space. Indeed, this concept prompted colonial France to produce a management policy that targets man and his space. This is how the Berber policy appeared, a policy which centers on cultural infiltration, ethnic polarization and the generation of dispersion between the different components of Moroccan society. This policy was followed to persuade the Moroccans to doubt their national identity. In this paper, we shall address the French protectorate policy with regard to Berber along two levels: The first level is meant to evince the importance of Berber policy in the French thought as illustrated by writings of the colonial era. The second is an approach to the conceptual device which evinces this Berber policy and which allows its activation on the ground by spreading the factors of dissension and congestion in Moroccan tribal society.*

**Key words :** Berber Policy – Assimilation – Cultural Infiltration – Ethnic Polarization – Dissent Simulation – Dependence.

*L'administration du protectorat français au Maroc entre 1912-1956 s'est intéressé, entre autres, à la question de la gestion indigène. Pour cela, elle s'est reposé sur une vision à base de l'assimilation du facteur humain dans un projet colonial d'ensemble. Le protectorat français a cru que la soumission de la population militairement et politiquement est le prélude à la domination de l'espace indigène. Ce qui a poussé la France coloniale à produire une politique de gestion qui vise l'homme et son espace. C'est ainsi que « la politique berbère » voit le jour, et qui a pour objectif essentiel l'infiltration culturelle, la polarisation ethnique et l'engendrement de la dispersion entre les composants de la société marocaine. Tout cela a été instauré afin de persuader l'homme marocain à douter de son identité nationale. A partir de là, nous allons exposer les principaux piliers de « la politique berbère » au Maroc du protectorat français, et ce à deux niveaux. Le premier, en démontrant la place primordiale de la « politique berbère » dans la pensée française illustrée par des écrits de l'ère coloniale. Le second est une approche du dispositif conceptuel qui véhicule cette politique berbère et qui permet son activation sur le terrain en répandant les facteurs de dissensions, de congestion dans la société tribale marocaine.*

**Mots-clés :** politique berbère – assimilation – infiltration culturelle – polarisation ethnique – simulation de la dissension – dépendance

اهتمت الإدارة الفرنسية في المغرب خلال الفترة ما بين 1912-1956، بمسألة التدبير الأهلي. مستندة في ذلك، على رؤية قوامها استيعاب العنصر البشري ضمن المشروع الاستعماري. لقد أدركت مؤسسة الحماية، أن إخضاع السكان، عسكريا وسياسيا، هو

مقدمة للتحكم في المجال الأهلي. ولعل هذا التصور، هو الذي دفع العقل الفرنسي إلى إنتاج سياسات تدييرية، تستهدف الإنسان والمجال ومن بينها "السياسة البربرية" التي تمثلت وظيفتها الأساسية في الاختراق الثقافي، والاستقطاب العرقي، واصطناع التفرقة بين مكونات المجتمع المغربي. وهي جميعها ممارسات، تحاول أن تصل بالفرد إلى مرحلة التشكيك في هويته الوطنية المغربية. انطلاقاً من هذا المدخل، سنعمل على عرض أهم مرتكزات السياسة البربرية في مغرب الحماية الفرنسية على مستويين: أولاً، من خلال إبراز مكانة السياسة البربرية في الفكر الفرنسي، عبر مناقشة بعض الكتابات الاستعمارية ذات الصلة. ثانياً، عبر مقارنة الجهاز المفاهيمي المهيكل للسياسة البربرية، والذي يسمح بتفعيل هذه السياسة في الميدان، وذلك بضخ عوامل التجزئة والاحتقان في المجتمع القبلي خصوصاً.

**الكلمات المفتاحية:** السياسة البربرية - الاستيعاب - الاختراق الثقافي - الاستقطاب العرقي - اصطناع التفرقة - التبعية.

## تقديم

منذ أن تزايدت أطماع الفرنسيين في المغرب، وخاصة بعد احتلالهم للجزائر سنة 1830 وانتصارهم على المغاربة في معركة إيسلي سنة 1844، وهم يجتهدون في وضع إستراتيجيات تهدف إلى التحكم في الإنسان والمجال. ولعل ذلك، ما دفع الإدارة الاستعمارية، إلى فتح الباب أمام باحثيها لدراسة المجتمع المغربي تفكيكا وتحليلاً. ومن هؤلاء الباحثين، نذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ "شارل دو فوكو" وكتابه "التعرف على المغرب 1883-1884"<sup>1</sup>، و"أوغست موليراس" في مؤلفه "المغرب المجهول"<sup>2</sup>، و"إدموند دوتي" وإصداره "مهام في المغرب: في القبائل"<sup>3</sup>، و"روبير مونتاني"، ودراسته "البربر والمخزن في جنوب المغرب"<sup>4</sup>، و"ميشو بلير" الذي شغل منصب رئيس قسم السوسولوجيا بمصلحة الشؤون الأهلية، وقد سبق له أن تحدث في "ندوة منظمة لفائدة الأقسام التحضيرية للشؤون الأهلية"<sup>5</sup>، عن ميكانزمات التدبير الأهلي في المغرب، مبينا الآليات المفصلية لهذا النسيج الاجتماعي، وكيفية استيعابه بهدف السيطرة عليه. لقد شكل هؤلاء وغيرهم، أداة معرفية هيأت للحماية الفرنسية، الأرضية العملية للتحكم والاستغلال، عبر المساهمة في إنتاج نظريات استعمارية من قبيل: "السياسة الإسلامية" و"السياسة الأهلية"، و"السياسة القائدية"، و"السياسة البربرية".

ليس القصد هنا، أن نحلل كل سياسة على حدة، وإن كانت كلها تصب في خانة سعي سلطة الاحتلال الفرنسي إلى التدخل المباشر في تنظيم شؤون الأهالي. بل إن مسعانا، هو الوقوف عند ما نعتبره حجر الأساس في الأدبيات الاستعمارية الفرنسية في بلاد المغرب؛ ألا وهي "السياسة البربرية"، التي ارتكزت عليها الحماية في محاولة منها لشق البنية العلائقية

<sup>1</sup> (De Foucauld (CH), 1888)

<sup>2</sup> (Mouliéras (A), 1895)

<sup>3</sup> (Doutté (E), 1914)

<sup>4</sup> (Montagne (R), 1930)

<sup>5</sup> (Michaux (B), 1927)

التماسكة للمغاربة. صحيح، أن التشريعات الفرنسية لم تتحدث عن هذا المفهوم. وذلك لأن "السياسة البربرية"، هي جزء من الإطار المرجعي المسمى بالسياسة الأهلية. والتي قامت، على ضرورة مراعاة خصوصيات وتقاليد المستعمرات<sup>6</sup>. كما أن العديد من الكتابات الاستعمارية، تحدثت عن هذه السياسة نصا كوسيلة لتثبيت الحماية في المناطق الأمازيغية، وكمارسة للسيطرة والتحكم في الإنسان الأمازيغي<sup>7</sup>.

من هنا، تبرز أهمية مقارنة هذه السياسة زمن الحماية الفرنسية، سواء على مستوى التصور النظري، أو على مستوى تحديد سمات الخطاب المعتمد في الميدان. ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية، سنشتغل ضمن محددات تضبط إطار هذه الدراسة وتتمثل في:

- إن تعامل فرنسا مع الأمازيغ ينطلق من مبدأ "فرق تسد"، فهي تدعي عدم تجانس التركيبة السكانية للمجتمع المغربي. ومن ثمة، تسمح للفاعلين المنفذين على أرض الواقع، بالتسرب إلى مكون معين ضمن هذا المجتمع وهم الأمازيغ، وتحسيسهم بوجود اختلافات تفصلهم عن المكونات الأخرى خاصة العرب منهم.

- إن هذه السياسة تعتمد على شبكة من المفاهيم، تتفاعل فيما بينها لتشكل ما يمكن أن نسميه نسقا، تتحدد وظيفته المركزية في كبح أي اندماج أو ترابط بين مكونات المجتمع المغربي. وتسعى جاهدة، إلى طرح بذور التشكيك وغياب الثقة بين أفراد الوطن الواحد.

انطلاقا من هذا التصور، حرصنا على تناول الموضوع في قسمين؛ قسم أول، يستعرض بعض الملاحظات حول سياسة فرنسا اتجاه الأمازيغ، وإسقاطاتها في القطاعات الدينية والاجتماعية والسياسية. القسم الثاني، ينكب على تتبع أهم المفاهيم التي تصوغ هذا الفكر الاستعماري والذي يشكل في مجمله، "كتلة" يتم استحضارها لتفعيل المشروع الفرنسي وسط الأهالي.

أولاً: ملاحظات حول "السياسة البربرية" في الفكر الفرنسي الاستعماري:

شكلت هذه السياسة، الموجهة إلى السكان المغاربة الأمازيغ أساسا، آلية محورية لتفتيت المجتمع المغربي خلال فترة الحماية الفرنسية. وقد قامت، على احترام العادات والتقاليد صوريا، والعمل على تناسقها مع الإصلاحات الإدارية والسياسية التي تقوم بها الإدارة الفرنسية، والحرص على حل جميع المشاكل الخاصة بالأحوال الشخصية (الإرث)، أو المعاملات التجارية (بيع وشراء العقار)، ومختلف النزاعات عن طريق العرف<sup>8</sup>. يتضح من ثانيا هذا التصور المبسط، أن هناك رغبة فرنسية في خلق ازدواجية داخل المجتمع المغربي، من خلال التدبير عبر العرف لشؤون فئة معينة من السكان ممثلة في الأمازيغ. "إذ العرف عند البربر، هو الذي يسوس جميع معاملات الحياة المدنية"<sup>9</sup>. وتبرز أهمية هذا الإجراء الفرنسي، في توسيع دائرة اختصاص القضاء "غير الديني" للقواد والباشوات، على اعتبار "أن المتقاضين يحبذون القضاء المخزني المرن والسريع، أكثر من القضاء الشرعي"<sup>10</sup>. إضافة إلى تكريس وتأكيد سلطة المؤسسات العرفية "البربرية" في القبائل المغربية، فإن فرنسا كانت

<sup>6</sup> (احساين، 2005، ص. 217)

<sup>7</sup> (Marty (P), 1925). (LeGlay (M), 1920-1921).

<sup>8</sup> (Ageron (Ch.R), 1971, p. 57)

<sup>9</sup> (Dumas (P), 1922, p. 19)

<sup>10</sup> (Hardy (G), 1922, p. 195)

حريصة على عدم إلزام الأمازيغ لا بالإدارة المخزنية، ولا بالقانون المدني الفرنسي<sup>11</sup>. إنها الثغرة، التي اخترقت منها سلطات الاحتلال جسم المجتمع المغربي، فتمت لها السيطرة على الوضع القضائي لدى المغاربة، بتحفيز وتشجيع القضاء المخزني "المرن"، واستبعاد وتجاوز القضاء الشرعي "المتعصب" في رأيهم، واستقطاب واحتضان القضاء العرفي الذي بلغ ذروته مع "الظهير البربري".

إن البحث في بعض ملامح "السياسة البربرية"، يقودنا إلى الرغبة الفرنسية الاستعمارية في إذكاء الخلاف والانقسام بين الأمازيغي والعربي، بالقول مثلا "إن إسلام البربر لا يتعدى الطقوس وحركات الجوارح"<sup>12</sup>. والقول أحيانا أخرى، "إن الإسلام وجد البربر متدينين بالنصرانية، وأن العرب أكرهوهم على اعتناق الإسلام"<sup>13</sup>. والاسترسال، في الحديث عن "خصوصية لدى السكان البربر"<sup>14</sup>. واعتبار أنهم، وهم الذين يشكلون أساس السكان الأهليين، "متوحشون، مشاغبون، غير خاضعين، يعيشون في جبال الأطلس الصعبة البلوغ، مستقلون عن السلطة المركزية"<sup>15</sup>. لم تبخل الحماية في أدبياتها الاستعمارية، عن الإشارة دوما إلى أن "البربر عصاة". كما أن مسؤولي الحماية، غالبا ما يعتمدون أسلوب التقليل من شأنهم بهذا الوصف "إن بربر الأطلس رعاة"<sup>16</sup>. صحيح أن هذه الأوصاف، لا صلة لها بقاموس الحداثة الذي يفترض أن تتبناه فرنسا المستعمرة. إلا أن اللجوء إلى هذا المعجم التحقيري، كان من أجل تهميش الأهالي. فما هو الرابط الذي يجمع بين هذه الإدعاءات الاستعمارية؟

لم تكن "السياسة البربرية" نابعة من فراغ، بل أسست لها كتابات سياسية وسوسولوجية، وأبحاث في شتى مناحي الحياة المغربية. إذا نظرنا إلى هذه الكتابات ذات النزعة الكولونيالية، سنجدها تتوزع على محاور ثلاثة:

أ- مراجع مرتبطة بالظاهرة الاستعمارية في المغرب ومنها: كتاب "التعرف على المغرب 1883-1884" لصاحبه "شارل دوفوكو". وهو عبارة، عن رحلة استكشافية قادته إلى العديد من المناطق في البلاد. كانت خلاصتها، هي تقديم تشخيص دقيق لمختلف الأماكن التي مر منها، في الجوانب العمرانية والاجتماعية والسياسية والجغرافية وغيرها. فساهم بذلك، في إنشاء رصيد معلوماتي للمشروع الاستعماري الفرنسي بالمغرب. وضمن نفس الاهتمام، يتناول كتاب "مهام في المغرب في القبائل"، مشاهدات "إدمون دوتي"، عالم الاجتماع، في رحلته ما بين مراكش وفاس. متحدثا، عن العادات والتقاليد والأصول والطقوس الاحتفالية والجنائزية. والتي شكلت، مدخلا للمستعمر الفرنسي لإرساء استراتيجية للتدبير والتنظيم في أوساط الأمازيغ خصوصا.

ومن منظور آخر، يقدم كتاب "المسألة المغربية دراسة جغرافية، سياسية وعسكرية" لمؤلفه "سانت بوف" صورة عامة لوضعية المغرب قبل الحماية. يضم المؤلف، حديثا عن السياسة الأوروبية اتجاه المغرب. قبل أن ينتقل الكاتب، لرصد العلاقة الفرنسية المغربية وتطورها منذ سنة 1870 إلى غاية احتلال توات سنة 1900. وبنفس التوجه، يقدم "إرنست فالوت" في كتابه

<sup>11</sup> Ibid., p. 197

<sup>12</sup> (العروي، 2009. ص. 590)

<sup>13</sup> (بنعدادة، 2003. ص. 187)

<sup>14</sup> (Michaux(B), 1927, p. 4)

<sup>15</sup> (Sainte-Beuve, 1903, p. 34)

<sup>16</sup> (Guillaume (Général), 1946, p. 32)

"الحل الفرنسي لمسألة المغرب"<sup>17</sup>، قراءة في وضعية البلاد جغرافيا وسكانيا ودينيا. ويضم الكتاب، وصفا مهما للمدن الرئيسية، وهيكلية المخزن، والامكانيات الاقتصادية التي تتوفر عليها البلاد. ولأن الكتاب، تزامن صدوره مع أجواء الصراع الاستعماري الفرنسي الانجليزي سنة 1904، فقد تضمن فصلا عن اهتمامات الانجليز في المغرب، في مقابل الطموحات الفرنسية مقدما حلولا "للمسألة المغربية".

ووفق ذلك، يأتي كتاب "مبادئ الاستعمار والتشريع الاستعماري"<sup>18</sup> "لأرثر جيرو"، بقراءة قانونية لمسألة الاستعمار، واصفا العناصر الرئيسية للتشريع الاستعماري، في مجرى تحليلي يعتمد المقارنة بين مختلف التجارب الاستعمارية. إنها محاولة من الكاتب، لتحديد الاختلافات، وفهم التوجهات. مؤكدا على أن نوع الاستعمار، هو الذي يحدد الخيارات المؤسساتية والنماذج القانونية المعتمدة. أما كتاب "مغرب الحماية"<sup>19</sup>، فسعى فيه "ريجنالد كان" أن يظهر تفوق فرنسا في المغرب عبر إبراز إنجازاتها في ثلاثة مستويات وهي: مسار عمليات التهدة، وتنظيمات ومهام الحماية، والعناصر المساهمة في تطور المغرب (موانئ، خطوط الاتصال، سياحة،...).

ويبقى كتاب "نهضة المغرب عشر سنوات من الحماية 1912-1922"، من أهم الكتابات ذات الطابع الدعائي. حيث حرص مجموعة من المؤلفين، على مقارنة مواضيع في التاريخ والجغرافيا والدين ومؤسسات الحماية والمخزن والتهدة والقضاء والصحة وغيرها من المجالات، والتي تظهر "النهضة" التي حققها المغرب زمن الحماية الفرنسية. في المقابل، يعتبر كتاب "المغرب في مواجهة الامبرياليات 1415-1956"<sup>20</sup> من الكتابات المهمة التي غطت فترة حاسمة من تاريخ المغرب. إذ وثق فيها "شارل أندري جوليان"، ردود فعل المغاربة اتجاه القوى الامبريالية التي مارست ضغوطا كبيرة ومتنوعة على المخزن، من أجل إخضاعه والنيل من سيادته.

ب- دراسات مرتبطة بسياسة فرنسا الأهلية: وعلى رأسها محاضرة "ميشو بلير" الذي تحدث في "ندوة منظمة لفائدة الأقسام التحضيرية للشؤون الأهلية"، عن ماهية السياسة الأهلية وأدوارها في خدمة المشروع الفرنسي بالمغرب. باعتباره، أحد منظريها ومنتجي سياستها على أرض الواقع. لقد أكد الكاتب هذه الخلاصة، في مستهل محاضرته بالإشارة إلى أن "السياسة الأهلية كموضوع، شكلت منذ سنوات الهدف النهائي لجميع أبحاثه المغربية". ويتقاطع كتاب "السياسة الأهلية في المغرب"<sup>21</sup> "لبيير بارون"، مع محاضرة "ميشو بلير" في مقارنة موضوع التدبير الأهلي عبر رؤية قوامها؛ الحفاظ على العادات، والحفاظ على النظام في القبائل، والحفاظ على الابتسامة بتعبير الجنرال "ليوطي". وعلى هذا الأساس، يحلل الكاتب بإسهاب عميق الجوانب الحياتية للمجتمع المغربي، وكيفية التعامل والسيطرة عليها.

أما كتاب، "غزو المغرب المسألة الأهلية"<sup>22</sup> فيتضمن إشارات قوية لمسألة التدبير الأهلي. فبعد أن تطرق "روني ميليت"، لبدايات غزو فرنسا للمغرب، وأجواء التفاوض مع ألمانيا

<sup>17</sup> (Ernest (F), 1904)

<sup>18</sup> (Girault (A), 1904)

<sup>19</sup> (Kann (R), 1921)

<sup>20</sup> (Julien (Ch.A.), 1978)

<sup>21</sup> (Parent (P), (n.d.))

<sup>22</sup> (Millet (R), 1913)

واسبانيا. سينتقل، إلى تتبع الوضع الداخلي للبلاد. موضحا السياسة التي اعتمدها الجنرال "ليوطي"، والعمل الكبير الذي أنجزه. والحديث هنا، عن "المسألة الأهلية" التي تناولها الكاتب ليس في المغرب فقط، بل في الجزائر وتونس كذلك متسائلا هل كان أهالي إفريقيا ضحايا؟ مبرزاً، تطلعاتهم للمستقبل.

ت- أبحاث مرتبطة بسياسة فرنسا "البربرية"، وفي هذا السياق يعتبر كتاب "البربر والمخزن في جنوب المغرب" "لروبير مونطاني"، من بين الدراسات الإثنوغرافية المهمة للقبائل الأمازيغية بمنطقة سوس، ومجموع التحولات السياسية التي عرفت هذه القبائل في علاقتها مع السلطة المركزية. علاقة، أظهر فيها الكاتب المخزن كأنه "عدو للقبيلة بسعيه إلى تحطيم مؤسساتها سواء باختلاق الأمغارات، أو من خلال زرع ورعاية أسباب الشقاق بين الوحدات التقليدية"<sup>23</sup>. وبنفس المنطق، في دراسة موضوع الأمازيغ بالمغرب. يطرح "فكتور بكيه" في كتابه "الشعب المغربي الكتلة البربرية"، تصورات لتفعيل "السياسة البربرية" عبر خطوات إجرائية منها: "الحرص على افتعال صراع دائم بين العرب والأمازيغ، والعمل على شرعنة الأعراف والتقاليد الأمازيغية وجعلها تتوافق وتوجهات "السياسة البربرية"، إضافة إلى إطلاق سياسة تعليمية تتطابق وسياسة الإلحاق التي تتبناها مؤسسة الحماية"<sup>24</sup>.

يأتي كتاب "البربر المغاربة وتهدة الأطلس المتوسط 1912-1933" للجنرال "كيوم"، ليتوج عمل مفكري الاستعمار الفرنسي بالمغرب. يركز هذا المؤلف، على عمليات التهدة بالأطلس المتوسط والصعوبات التي واجهت تقدم الجيش الفرنسي في مجال جغرافي صعب. في المقابل، يقدم توجيهات لكيفية التعامل مع العنصر الأمازيغي عبر مصلحة الشؤون الأهلية. وهو ما يوضحه، بشكل جلي "موريس لوكلي" في مقاله "المد البربري الجندي المغربي"<sup>25</sup>، والذي يناقش فيه "المسألة البربرية" "منتقدا استراتيجية المقيم العام "ليوطي" في تدبير هذا الشأن. ومقترحا، استيعاب الجندي المغربي ضمن المؤسسة العسكرية الفرنسية". هي دعوة للاستيعاب، سيحرص "شارل روبر أجيرون" على تحليلها في مقاله المعنون "بالسياسة البربرية في مغرب الحماية 1913-1934" باستعراض مفهومها. حيث اعتبرها امتدادا "للسياسة القبائلية" بالجزائر. وقد قسم الكاتب مقاله إلى قسمين؛ قسم أول يتضمن رسدا لمجموع التمثلات الخاصة بالإنسان الأمازيغي، والتي على أساسها تم وضع هذه السياسة. وقسم ثاني، يقدم كرونولوجيا تععيد "السياسة البربرية" منذ سنة 1913 إلى سنة 1930 تاريخ صدور "الظهير البربري".

انطلاقاً من توضيحنا للفروقات بين مختلف الكتابات الاستعمارية التي اعتمدنا عليها، نقول إن الاستنتاجات تكاد تكون واضحة. فأغلب الأحكام الجاهزة التي أصدرتها هذه الدراسات، نابعة في اعتقادنا من رغبة كامنة في العقل الفرنسي لتشويه صورة الإنسان الأمازيغي، وبث التعارض والفرقة بينه وبين الإنسان العربي. فالحديث عن "البربر" كرعاء، وعصاة ومتوحشين ومشاغبين ويعيشون في شقاء...يخدم هذا التوجه، بخلق نوع من الاختلاف، أو لنقل نوع من التمييز بين الطرفين، ينتهي في المنظور الاستعماري، بإقصاء طرف على حساب طرف آخر، أو على الأقل، تفضيل طرف على حساب الآخر.

<sup>23</sup> (العروي، 2016، ص. 232)

<sup>24</sup> (بوزوينة، 2007، ص. 19)

<sup>25</sup> (LeGlay (M),1935)

وإذا ما حاولنا الانتقال إلى مستوى أعمق في التحليل، نقول إن هذه الكتابات تنطوي على قاعدة أحداث انقلاب في البنية المجتمعية المغربية في مختلف مستوياتها. بدءاً وأساساً بالجانب الديني، مع ما يحتويه هذا الجانب من حمولة إيمانية وسموية مقدسة؛ مروراً بالجانب الاجتماعي، وما يضمنه من معطيات اللغة والعادات والثقافة عموماً؛ وصولاً إلى الجانب السياسي، وما يملك من مرجعية الحكم والسلطة.

إن التدقيق في تقاطعات هذه المستويات، وتأثيرها على الإنسان المغربي، يدفعنا إلى تبني استنتاج مفاده؛ أن مقاصد "السياسة البربرية" هي تكسير وحدة الإنسان المغربي، بضربه في صميم كينونته، إن صح التعبير. ففي الجانب الديني، نجد أنه من جملة ما استهدفته السياسة البربرية هو إقامة حواجز نفسية بين الأمازيغي والعربي، بالتشكيك في إسلام الأول، واتهام الثاني بفرض "دينه" بالقوة على الآخر. وغاية الحماية، هي إحداث توتر بين الطرفين، باستغلال مرجعيتين مختلفتين: عربية إسلامية، وأمازيغية عُرْفية.

وفي الجانب الاجتماعي، ترمي "السياسة البربرية" إلى تأكيد الاختلاف اللغوي، وترسيخ التباعد الثقافي بما هو عادات وتقاليد، للوصول إلى إحداث شرخ في البنية المجتمعية المغربية، يكون مقدمة لإحداث فجوة بين مكونات الشعب المغربي. وهنا، تحضر أمامنا التركيبة اللغوية كعامل في تأجيج الصراع، بين لسان عربي ولسان أمازيغي، ليفسح المجال للسان الفرنسي للهيمنة. يقول مدير قطاع التعليم زمن الحماية "هاردي": يجب منح الأهالي الوسائل للعيش في جو العالم المعاصر، وتطوير نشاطهم واكتسابهم للصيغ والآليات التي تسمح بالحصول على فوائد ضرورية، كل هذا في إطار الحفاظ على فكرهم وعاداتهم كما يحلو لهم. إنعاش بدون استئصال، تنوير بدون ضياع، وجعلهم يشعرون بأننا نريد مصلحتهم"<sup>26</sup>.

أما في الجانب السياسي، فتبتغي "السياسة البربرية" تصوير الإنسان الأمازيغي على أنه متوحش، مشاغب، غير متحضر، مستقل عن السلطة المركزية، ويرفض الانصياع لها معتبراً قبيلته هي وطنه<sup>27</sup>. وهذا ما يؤكد "سانت بوف" بقوله: "إن وطن المغربي، هي قبيلته التي هي حدود شعوره التضامني، إذ إن خارج عشيرته لا يرى إلا الاختلاف والأعداء. من هنا، جاءت هذه الانتفاضات كتعبير عن رفضه المساس باستقلاليتته أو حثه على المساهمة في دفع الضرائب وفي تسيير دواليب الدولة"<sup>28</sup>. لقد عبّر "جرمان عياش" عن رفضه لهذه القراءة بقوله: "إن إعادة نقل صورة المغرب بنقيضيه بلاد المخزن وبلاد السبيبة، من الكتابات الاستعمارية إلى الكتابات التاريخية الحديثة، يشكل عائقاً أمام تقدم البحث"<sup>29</sup>.

وعموماً، فالتصور الفرنسي "للسياسة البربرية"، ينبع من دراسة متعددة لمختلف جوانب المجتمع المغربي، قبل الوصول إلى تصريف نتائج هذه الدراسة في شكل هيمنة على أرض الواقع، عبر سياسة "أبوية وصارمة" بتعبير "ريجنالد كان"<sup>30</sup>، و"بمرونة تمكن من التكيف مع

<sup>26</sup> (Hardy (G), 1922, p. 203)

<sup>27</sup> لم تسلم كتابات بعض مؤرخي القرن 19 من المغاربة من مثل هذه التوصيفات، من ذلك ما نجده عند محمد أكنسوس، وأبو القاسم الزاياني، ومحمد المشرفي، وعلى وجه الخصوص، أحمد الناصري (أنظر كتاب الاستقصا، الجزء 7، ص: 68، 146، 173-175، 180، 183 والجزء 8، ص: 80، 152، و123، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001) (هيئة التحرير).

<sup>28</sup> (Sainte-Beuve, 1903, p. 37)

<sup>29</sup> (جرمان، 1986، ص 146)

<sup>30</sup> (Kann (R), 1921, p. 53)



عدد لا محدود من الوضعيات المختلفة والطبائع"، حسب "أرثور جيرولت"<sup>31</sup>. وهذا ما يوضحه "دانييل ريفي" بقوله: "في معظم الأحيان، يعتمد ضباطنا وجنودنا فيما بينهم الطرق الحياتية الخاصة بالأهالي؛ قلة الحركات، السلام بتقبيل الإبهام، التعود على الجلوس القرفصاء ولمدة طويلة، والتحرك بوقار وعزة نفس، كما أننا سمحنا بتقبيل اليد"<sup>32</sup>. إنها سلوكيات، تحاول أن تنخرط في صلب النسيج الاجتماعي الأمازيغي. من خلال الانتماء للسكان، ومحاولة التموذج إلى جانبهم للوصول في النهاية إلى تشريح الحقل القبلي الأمازيغي. إذن، فالفكرة الأساسية التي لا ينبغي أن تغيب عن أذهاننا في هذا التحليل، هي أن "السياسة البربرية" ترادف وتكافئ مفهوم التفرقة، المبنية على الصرامة أحيانا، والمرونة في أحيان أخرى، تبعا لوضعية القبيلة المستهدفة.

ومما يلفت الانتباه في هذا السياق، هو الاقتناع التام للكاتب الفرنسيين بعدالة المشروع الاستعماري في المغرب، وبأهمية السياسات المرتبطة به، وعلى رأسها "السياسة البربرية"، في مساعدة البلاد على النهوض والتقدم. وهذا واضح مثلا، فيما أورده الكاتب الفرنسي "بيير بارون" في مؤلفه "السياسة الأهلية في المغرب" بالقول: "إن لفرنسا التي استقرت في المغرب واجبات وحقوق، لا يهمني إذا كان مجيئها عن حق أو باطل، فأنا أتصور الوقائع فقط، إذ لا يمكن أن نغير الحاضر بانتقادنا الماضي. وجدت فرنسا هنا شعبا له حسنات صلبة، وكثيرا من الأخطاء، فتحملت مسؤوليته"<sup>33</sup>.

لسنا في حاجة، لمناقشة المنطق الذي يتحدث به هذا الكاتب عن الاحتلال الفرنسي للمغرب، محاولا القفز عن جرم الغزو، الذي يصوره أمرا واقعا، والذي تجرّمه كل القوانين الدولية وترفضه كل الشعوب، إلى حديثه عن الواجب والحق والمسؤولية الفرنسية اتجاه شعب مليء بالأخطاء.

نختم القسم الأول من هذا العمل، بمحاولة عقد مقارنة بسيطة بين ما أورده من ملاحظات حول "السياسة البربرية" في المغرب، والممارسة الفرنسية لهذه السياسة في الجزائر. في هذا السياق، يمكن أن نستعرض التجربة الفرنسية بالجزائر من خلال الاستعانة بنموذجين من الكتابات الاستعمارية. والبدائية، مع كتاب "استعمار الجزائر" لصاحبه "أونفنتان" الذي يكشف فيه عن التوجه الفرنسي في التعامل مع القبائل الجزائرية قائلا: "إننا غزونا، فينبغي علينا تدبير غزوتنا... إنه واجب وضرورة بالنسبة للسلطة الفرنسية، أن تنظم وتحكم وتدبير القبائل الخاضعة"<sup>34</sup>. ومنطق هذا التدبير، يقتضي "العمل على حل هذه القبائل، وتقسيمها إلى فرق مستقلة عن بعضها، بحيث لا ينبغي أن نؤسس لا شيئا ولا قائدا كبيرين. علينا، أن نعطي لكل فرقة تنظيما مستقلا وربطها باستعجال بالسلطة الفرنسية"<sup>35</sup>. وفي ضوء هذا التوجه، يطرح "إرنست ميرسيي" في كتابه "المسألة الأهلية في الجزائر" تصوره للتعامل مع القبائل في الجزائر بالقول: "أنها غير ناضجة لممارسة النظام الديموقراطي، فهم لا يعرفون إلا الحكم الاستبدادي. وهم في حاجة إلى الشعور بأنهم محكومون بسلطة عليا لا يمكن الوصول إليها"<sup>36</sup>.

<sup>31</sup> (Girault (A), 1904, p. 638)

<sup>32</sup> (Rivet (D), 1988, p.53-54)

<sup>33</sup> (Parent (P), (n.d.), p. 6)

<sup>34</sup> (Enfantin, 1873, p. 336)

<sup>35</sup> Ibid., p.384

<sup>36</sup> (Mercier (E), 1901, p.100-101)

ويشدد الكاتب، في أحد مقاطع كتابه، على أنه "من الصعب الكشف عن تفكيرهم، والحصول منهم على شيء من الثقة إلا إذا تكلمنا لغتهم، واعتمدنا شكلا أفكارهم لاستدراجهم للانكشاف لنا"<sup>37</sup>.

يتضح من خلال هذه الآراء، أن هناك نزوعا فرنسيا نحو تقمص دور الوصي على الأهالي عموما والأمازيغ في المناطق القبلية خصوصا. إنها رغبة، في تغيير وضع، وتجاوز واقع، وإرساء منظومة فكرية تستمد خطابها من مفردات؛ التقسيم والتحطيم، والاستبداد، والاستدراج. وعليه، نستنتج أن هناك تطابقا إلى حد كبير بين الرؤية الفرنسية في التعاطي مع الأمازيغ في المغرب، ونظيرتها في الجزائر. وهذا ما أكدته بعض الكتابات الاستعمارية، عندما اعتبرت "السياسة البربرية" امتدادا "للسياسة القبائلية" في الجزائر<sup>38</sup>. وهو ما عبر عنه أيضا باحثون مغاربة، ومنهم عبد الله العروي بقوله: "اكتسبت الإدارة الفرنسية في الجزائر تجربة واسعة وظفتها في تونس ثم المغرب"<sup>39</sup>. ويضيف عبد الحميد احساين قائلا: "شعرت الإقامة العامة بإمكانية استغلال الاختلافات بين "العرب" و"البربر". وعملت لذلك على ما سمي بالكتلة البربرية الوسطى، على تطبيق سياسة بربرية تذكر بمبادئ "السياسة القبائلية". وانبنت هذه السياسة على المحافظة على الأعراف الأمازيغية، وتأسيس محاكم عرفية، وعلى تطوير الإيمازيغن "خارج إطار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية"، والعمل على محاربة اللغة العربية وفرض اللغة الفرنسية في المنطقة عن طريق تأسيس مدارس فرنسية-بربرية"<sup>40</sup>.

**ثانيا: في البحث عن المفاهيم المهيكلة "للسياسة البربرية":**

إن "السياسة البربرية"، في بعدها العرقي/العنصري، تشكل ضرورة للحماية الفرنسية بالمغرب، وهي تصبو إلى خلق وضع غير طبيعي بين مكونات المجتمع المغربي. ولنا في هذا الصدد، ما أورده العقيد "هيوت" مثال واضح عن عمل هذه السياسة، أيقونة الحماية، إذ يوضح: "نحن في بلاد البربر وعلينا القيام بسياسة بربرية، وعلينا أن نحذر من الإسقاطات المبكرة والتي ستؤدي بنا إلى تصورات إقصائية. صحيح أن كلمة مخزن تؤذي سماع البربر، وهل ينبغي التواطؤ معهم في هذا النفور، وننكر السلطة الطبيعية؟ فعلا، لا. فما رفضوه ولم يقبلوه هو العنف وضعف المخزن. ولهذا، سنعمل على إسقاط هذه الظنون ونؤكد لهم أن مخزن اليوم هو مخزن عادل ومتسامح. إن الشيء الوحيد، الذي يتمسك به البربر هو تنظيمهم الاجتماعي وعاداتهم الخاصة. وقوام السياسة البربرية الحقيقية، هو احترام هذا التنظيم وهذه العادات والعمل على تناسق إصلاحاتنا الإدارية معها. فلا تُعين لهم قضاة إلا إذا طلبوا ذلك، وتستمر العادة في معالجة قضايا الأحوال الشخصية والعقارية والخلافية... ولا بد لنا من قواد، فهم المتحدثون باسم القبيلة، ووسيط بيننا وبين السكان، مع عدم التقليل من أهمية الجماعة، التي يمكن للبربر ضمنها مناقشة مصالح القبيلة... ينبغي على ضابط المخابرات، دراسة دقيقة، والبحث أو إحداث تصدع في الكتلة المعادية، لكي تناسب دعوته السلمية، ويقم علاقات سواء بالإقناع أو بالمال، لكسب مودة بعض زعماء القبائل الذين سيصبحون بالنسبة إليه، موطن قدم لخلق فرق مؤيدين للتهدئة. وبالتالي، التسويق لفكرة الاستسلام. كيف يمكن زعزعة عناد غير

<sup>37</sup> Ibid., p. 211-212

<sup>38</sup> (LeGlav (M), 1935)

<sup>39</sup> (العروي، 2009، ص. 578)

<sup>40</sup> (احساين، 2005، ص. 218)

الخاضعين؟ إقناعهم بأنهم سيصبحون سعداء، وسيغتنون وسيحافظون على عاداتهم التقليدية. وإذا لم تنجح هذه السياسة الأهلية، وحججها مع المتشددین من السكان، يتدخل العمل العسكري كـمعاون للعمل السياسي"<sup>41</sup>.

إن اعتمادنا على هذا النص، يهدف إلى التقرب من آلية اشتغال "السياسة البربرية". فهذا النموذج المقدم، يعتبر في نظرنا بيئة مصغرة لعمل هذه السياسة، تنطق وتعبر عن البيئة الكبرى الممثلة في بلاد المغرب. وبالتالي، ففهم هذا النموذج سيمكننا من اكتساب رؤية أوضح لعمل هذه السياسة في عموميتها.

عندما نبدأ بتحديد المفاهيم التي بني عليها هذا النص، سنجد أنفسنا أمام الحقل المفاهيمي التالي: "بلاد البربر"، و"المخزن"، و"التواطؤ"، و"النفور"، و"التنظيم الاجتماعي"، و"العادات التقليدية"، و"العرف"، و"تصدع الكتلة"، و"القبيلة" و"الدعوة السلمية"، و"فكرة الاستسلام". إنها أهم المصطلحات التي يضمها هذا الخطاب الاستعماري، والتي هي جزء من عملية صنع السياسة البربرية. بل هي، ذلك القالب الجاهز الذي تستخدمه مؤسسة الحماية، في التعامل مع مكون الأمازيغ في المجتمع المغربي. فإلقاء نظرة على هذه المجموعة الدلالية، يبين لنا بجلاء اللحام الذي يجمع بين عناصرها.

أول مصطلح نصطدم به، في تناولنا "السياسة البربرية" يتمثل في "بلاد البربر"، وما لهذا المفهوم من دلالات التصنيف والتموضع والانتقائية العرقية والتميز عن باقي مناطق المغرب. وقلما نجد دراسة فرنسية حول مغرب الحماية، لا تستخدم هذا المصطلح. هكذا نجد "روبير مونتاني" مثلاً "يتساءل عن كيفية تأسيس هذه الإقطاعية البربرية"<sup>42</sup>، وبنفس المنطق يتحدث "موريس لوكلي" عن "الكتلة البربرية المشكلة للمجتمع المغربي"<sup>43</sup>، ويؤكد "فكتور بيكيه" عن "أن المجتمع المغربي هو مجتمع بربري"<sup>44</sup>. في مقابل هذا التدفق المصطلحي الاستعماري، تترسخ لدينا القناعة بأن هناك رغبة فرنسية أكيدة لإحداث انقسام عرقي ومجالي في البنية المجتمعية المغربية، "فبلاد البربر" سيقابلها بالتأكيد "بلاد العرب". وهو ما يخدم مصلحة الاستعمار، الذي يجد في بيئة الانقسام والتجزئ والنزعات العرقية فرصته للاستغلال. كل ذلك، في سياق اعتبار المجتمع المغربي بأنه "شذو قبايل متناحرة". يقول العروي: "ما إن فرضت الحماية على المغرب حتى ظهرت بوادر ما سمي بالسياسة البربرية. وانطلاقاً من 1914 رُسمت خريطة المناطق البربرية التي لم يكن دخلها بعد أي جندي فرنسي واعتبرت أنها لا تخضع مبدئياً لسلطة المخزن"<sup>45</sup>.

بالانتقال إلى مفهوم "المخزن"<sup>46</sup>، يتضح أن هناك صيغة تحريضية في حديث العقيد "هيوت"، عندما يقول: "صحيح أن كلمة مخزن تؤدي سماع البربر". هل هو حديث عارض أعقبه تلميح صورة هذا المخزن العادل والمتسامح؟ كلا، إنه حديث مسؤول، من أحد كبار القادة العسكريين الذي شغل منصب مدير مصلحة الشؤون الأهلية ومصلحة الاستخبارات. وبالتالي، نريد أن نؤكد هنا، أن "السياسة البربرية" قامت على فكرة استغلال حماس العنصر الأمازيغي

<sup>41</sup> (Huot (Lieutenant-colonel), 1922, p. 179-180-181)

<sup>42</sup> (Montagne (R), p. 9)

<sup>43</sup> (Leglay (M), 1935)

<sup>44</sup> (Piquet (V), 1925)

<sup>45</sup> (العروي، 2009، ص. 590)

<sup>46</sup> (جادور، 2011، ص 383)

لفكرة "استقلاله وحرية". لتذكر، أو بمعنى أصح، لتوقظ وتحيي في ذاكرة هؤلاء الأمازيغ معاناتهم السابقة مع المخزن، عندما كان يوجه حملاته العسكرية لتأديب قبيلة أو استخلاص ضريبة. يشير "العروي" في هذا الإطار، إلى "أن رجال المخزن اعتمدوا أحكاما قاسية في حق الأمازيغ خلال القرن 19 وبداية القرن 20"<sup>47</sup>.

أما الحديث عن مصطلحي "التواطؤ" و"النفور"، فهو حديث عن قاموس استعماري مليء بهذا النوع من الكلمات، التي توظف في خلق جو معين في اتجاه خدمة تصور محدد. هكذا، نجد العقيد "هيوت" يتساءل "هل ينبغي التواطؤ مع البربر في هذا النفور من المخزن؟" إنه سؤال العارف، الذي يتوخى تجنب الحقيقة ويبحث عن الخيال. فالحقيقة، هي أن التواطؤ والانحياز وغياب المصادقية وغيرها من المعاني المماثلة، موجودة بل ومرغوب فيها من المستعمر. فقد أورد "بول باسكون": "إن المحتل كتب إثنوغرافيا انتهت بتوضيح الاختلافات الجهوية الحقيقية، بهدف صريح هو استغلالها للتقسيم"<sup>48</sup>. أما الخيال، فهو ذلك الكم الهائل من عبارات "إن فرنسا لا تحركها الآراء المسبقة المعادية للدين الإسلامي، بقدر ما تريد ازدهار المغرب"<sup>49</sup>، أو إن "المغرب سيكون غدا الجزء الجميل والغني من إفريقيا الشمالية... إذا كان العالم طاووسا، فإن المغرب ذيله"<sup>50</sup>. أما "النفور"، فهو تحصيل حاصل للتواطؤ، فالانحياز لطرف على حساب آخر، باستقطاب البعض وتجاهل البعض الآخر، يولد مشاعر النفور وعدم القبول وغياب الرغبة في التعاون أحيانا. بل، ويمهد الطريق إلى التعاون مع المستعمر، الراجح الأكبر من هذه السياسة. يوضح "علال الفاسي" هذه الصورة بالقول: "إذا حيل بين البربر وبين العرب، بين كل ما جاء به العرب من لغة وقضاء وثقافة، فالبرابرة سيمسون بوجدانهم الخاص، وسيبحثون عن الروحانية القديمة التي جاءتهم بها روما من قبل، وليس من البعيد أن يتمسحوا. وبعد ذلك، فسندج منهم العامل القوي لمعاودة الاندماج في فرنسا، التي تحررهم من سيطرة العرب الروحية والزمنية"<sup>51</sup>.

نواصل تفكيكنا للبناء المفاهيمي الذي قامت عليه "السياسة البربرية"، فننوقف عند مفاهيم "التنظيم الاجتماعي" و"العادات الخاصة"، و"العرف". إنها الشعارات التي رفعتها هذه السياسة، في محاولتها بث التفرقة بين مكونات الشعب المغربي. عندما راهنت مؤسسة الحماية، باستراتيجيتها التفكيكية، على طرح هذه العناوين البراقة، متحدثة عن تنظيم اجتماعي خاص بالأمازيغ، يقوم على تقديس حياة القبيلة، وإقامة مجتمع له مميزاته الاقتصادية (الزراعة والرعي)، والعسكرية (الغزو والتوسع). وفي الجانب المتعلق بالعادات والتقاليد، تصدح الكتابات الفرنسية، بإيعاز من منظري "السياسة البربرية"، بعبارات الاختلاف والخصوصية والتميز التي تطبع عادات الأمازيغ بخلاف عادات العرب. وهو ما يعني، رغبة فرنسية في تشييد بناء عازل بين المكونين الأساسيين للشعب المغربي، أساسه اختلاف الأنماط الاجتماعية، وتباعد الطباع الثقافية، وتحكم الممارسات العرفية. "ولا شك أن مثل هذه الأفكار، تخدم مصالح

<sup>47</sup> (العروي، 2016، ص. 224)

<sup>48</sup> (Pascon (P), 1980, p. 189)

<sup>49</sup> (Ernest (F), 1904, p. 150)

<sup>50</sup> (Conférence sur le Maroc, 1904, p. 8)

<sup>51</sup> (الفاسي، 2003، ص 162)

مهندسي السياسة الاستعمارية الراغبين في استغلال الاختلاف الموجود بين الأمازيغ والكتلة العربية الإسلامية<sup>52</sup>.

نصل إلى مفهوم "تصدع الكتلة"، الذي نعتبره مطلب "السياسة البربرية". فكل ما قلناه، عن الطموح الفرنسي في عزل وتصنيف المجتمع المغربي إلى "بربر" و"عرب". والرغبة، في تشويه صورة الإنسان الأمازيغي باعتباره متمردا، ومتوحشا، وغير متحضر، والإستغلال الفاحش لصورة "المخزن" في ذاكرة القبائل المغربية، والتواطؤ الفاضح مع طرف دون آخر، حسب ما تقتضيه المصلحة الفرنسية، والعزف على نغمة التباين الاجتماعي والثقافي بين الطرفين. كل ذلك يصب في خانة واحدة؛ هي إحداث تصدع في الكتلة المغربية. أو بمعنى آخر، خلخلة موازينها القائمة والمرتكزة على وحدة العرب والأمازيغ وانصهارهما.

في حديثنا عن القبيلة، ندرج مناقشة "العروي" لهذا المفهوم، فهو يشير إلى أن هذا المصطلح "يعني أشياء مختلفة جدا، نطلق الكلمة على تنظيم الرّحل الرحالة، أي على نظام اجتماعي شامل يلائم وحده المحيط الصحراوي الصرف. ونطلقها على سكان الجبال، أي على مجموعة قواعد تخص المعيشة والسلطة وتهدف أساسا إلى ضمان التوازن بين الأسر. ونطلقها أخيرا على سكان السهول والهضاب، أي على تنظيمة أسامي ورموز تصلح فقط لتصنيف التجمعات السكنية. كلمة واحدة نعبر بها عن مضامين مختلفة"<sup>53</sup>.

تأسيسا على هذا التصور، يبقى من الضروري توضيح نظرة بعض الكتابات الاستعمارية للقبيلة والأمازيغ عموما. في هذا الصدد، يعتبر كتاب "البربر والمخزن في جنوب المغرب" "لروبير مونتاني" من الدراسات التحليلية المهمة التي تناولت مفهوم القبيلة الأمازيغية، حيث نجده يعتبر أن "انضمام العشائر بعضها إلى بعض ثلاثة أو أربعة وأحيانا ثمانية أو عشرة يأخذ اسم قبيلة". ويضيف، إنها "مجموعة من الكنطونات يتغير عددها ما بين ثلاثة إلى اثنا عشر، لها أرض محددة، وإسم، وبعض العادات المشتركة، وفي نفس الوقت ليست لها مؤسسات سياسية واضحة"<sup>54</sup>. ويرى "مونتاني" أن "هذه الكتلة المسماة قبيلة، لا تظهر وحدتها إلا في المناسبات الاستثنائية عندما تكون استقلالية الكنطونات مهددة من طرف المخزن، فيجتمع المحاربون للدفاع عن البلاد". إنها وحدة يعتبرها الكاتب، "تقوم على ارتباط دائم يوحد هذه الكنطونات، وهو رابط يشهد على الثوابت التاريخية لاسم القبيلة. ويتميز في غالب الأحيان بوجود شعور أخوة غامض"<sup>55</sup>.

وبنفس التوجه، يحاول "لويس رين" في كتابه "جذور البربر دراسات لغوية وإثنولوجية"، أن يبين أصول الأمازيغ وامتداداتهم، رغم اعترافه بصعوبة الأمر حيث يقول: "بالتأكيد لسنا قادرين بالنسبة لأصل البربر، تقديم مجموعة من الحلول التي تستند على أسس متينة لصياغة حقيقة تاريخية". ويضيف، "لكننا ومنذ الآن نتبين وبوضوح الخطوط العريضة التي سنكتب يوما بالاعتماد على عدد من الجغرافيين، والتي تكشف عن هجرة البربر الأولى عبر آسيا وأوروبا وعلى تخوم الأورال إلى سهول الصحراء"<sup>56</sup>.

<sup>52</sup> (احساين، 2005، ص. 217)

<sup>53</sup> (العروي، 2009، ص. 99)

<sup>54</sup> (Montagne (R), 1930, p.159)

<sup>55</sup> Ibid., p. 159

<sup>56</sup> (Rinn (L), 1989, p.185-186)

وهنا، نتوقف عند مقارنة سريعة بين ما أورده "لويس رين"، وما جاء في بعض الكتابات الاستعمارية الأخرى ومنها كتاب "دليل البربر المغاربة لهجة الشلوح" للضابط الفرنسي "جوستينار" الذي يرى "أن هناك سلالتين رئيسيتين في شمال إفريقيا: السلالة البربرية والسلالة العربية. إن السلالة البربرية هي أصيلة في هذا البلد الذي سماه بعض الكتاب البربري"<sup>57</sup>. كما انبرى الكولونيل "سيمون"، في مقال له بعنوان "دراسات بربرية في المغرب وتطبيقاتها في السياسة والإدارة" لتأكيد هذه الخلاصة قائلاً: "يتفق جميع الكتاب بأن سكان شمال إفريقيا هم معظمهم بربر، ولذلك نطلق أحياناً تسمية البربرية على هذه البقعة الشاسعة"<sup>58</sup>.

ماذا يمكننا أن نستنتج من هذه الكتابات؟ لقد "طُرحت القبيلة دائماً كعائق واقعي وموضوعي سواء في محاولة التسرب الفرنسي، أو في محاولة ما اصطلح عليه بالتهدئة"<sup>59</sup>. تم توظيف القبيلة، كمفهوم وكواقع للتحكم في الإنسان الأمازيغي، وبدون جدوى. لذا، فنحن نتلمس أسس ومرتكزات "السياسة البربرية" في انطلاقها من فكرة مركزية عمادها أن تفعيل هذه السياسة في الميدان، يقتضي أولاً الوعي بالمجال والإنسان اللذين يتشكلان في القبيلة. بناءً عليه، فتحت مؤسسة الحماية، الباب أمام باحثيها لدراسة هذا الحقل القبلي وما يشمله من رأس مال لغوي أمازيغي وثقافي، لفهم المكون الأمازيغي في المجتمع المغربي. فأنتجت دراسات حولهما، بمضامين الفوضى والتمرد والتفكك وغموض الأصول وغياب الوحدة. وهو ما يتماشى، مع ما أورده من ملاحظات حول مفهوم "السياسة البربرية" في الفكر الاستعماري الفرنسي.

ولما لم تعط هذه السياسة النتائج المرجوة منها، في تفتيت وحدة مكونات المجتمع المغربي وإقامة الحواجز بينها. تفتتت ذهنية المستعمر الفرنسي، لتنتج لنا الوسيلة العملية للوصول إلى هذا "التصدع"، والمتمثلة في ما سمي "بالظهير البربري". لن نخوض في تحليل هذا الظهير، وتبعاته على المجتمع المغربي. ويكفي في هذا الصدد، أن نسوق ما أورده "شارل أندري جليان" حول هذا الموضوع قائلاً: "تم إبعاد المخزن عن أشغال لجنة رجال القانون المكلفين بوضع التغييرات الممكنة إحداثها على القضاء البربري، وقد انتهوا إلى كتابة مشروع يعترف بالأهلية القضائية للجماعة، ويحدد صلاحيات المحاكم العرفية، وهو نفس التوجه السياسي لليوطي المساند لحفظ العرف. ولم يكن الأمر كذلك في الشأن الجنائي، الذي نقل البربر إلى القضاء الفرنسي، مما حرم السلطان من أهم امتيازات سلطته. وقع سيدي محمد النص في 16 ماي 1930، إما بغير علم، بسبب عدم تحذير حاشيته له، أو أنه اختار الاستسلام للضغوط الملحة للمقيم لوسيان سان. لقد انتبه مؤلفو الظهير إلى أهمية الإصلاح ولم يدركوا انعكاساته... لقد رأى فيه المثقفون إرادة لإلغاء الشرع لتسهيل إقامة المسيحية"<sup>60</sup>.

نأتي إلى صورة أخرى، في سلسلة المفاهيم التي نعتبرها مؤطرة "للسياسة البربرية"، والمجسدة في "الدعوة السلمية" و"فكرة الاستسلام". وهنا نطرح السؤال؛ ما هو وضع المصطلحين، أولاً، في سياسة تقوم على شحذ بواعث الانقسام واستغلال مظاهر الاختلاف، والتي تؤدي إلى جعل الآخر عدواً. وبالتالي، إقصائه في نظر المستعمر. ثانياً، التنوع في نظرنا والذي هو واقع حال المجتمع المغربي على مر العصور؟

<sup>57</sup> (Justinard (L), 1914, p.159)

<sup>58</sup> (Simon (H), 1915, p.7)

<sup>59</sup> (الهروي، 2010، ص. 54)

<sup>60</sup> (Julien (Ch.A.), 1978, p. 160)

لا بد من الانطلاق في إجابتنا، من استحضار معنى "الدعوة السلمية" و"فكرة الإستسلام". فنقدم تصورا لأحد الكتاب الفرنسيين جاء فيه: "لقد حصل اليوم إجماع في فرنسا في شأن المغرب ... علينا أن ندخل سلميا، ونطبق ما نسميه الدخول السلمي"<sup>61</sup>. ونضيف قول كاتب آخر: "ليس هناك ما يمنع المغربي والفرنسي من التفاهم على جميع الأصعدة. -حيث لا يقم الدين- ويكفي أن يلتزم كل واحد مكانه ويعامل الآخر كما هو"<sup>62</sup>. ويعزز الجنرال "بيجو" كل ما سبق بالقول: "لا نستعمر إلا بالأمن. والأمن لا نحصل عليه إلا بالسلم"<sup>63</sup>. في جميع هذه النماذج، هناك معاني السلم والتفاهم والأمن. وفي جميع هذه الحالات، هناك دعوة ضمنية إلى نهج أسلوب السلم والحوار في استعمار المغرب! للوصول بالأهالي إلى فكرة الاستسلام للمشروع الاستعماري الفرنسي. لكننا نعود لنتساءل، هل هناك استعمار سلمي؟ لا تخلو إجابة أحد الكتاب الفرنسيين على هذا السؤال من بلاغة، إذ عبر بدقة عن السياسة الواقعية للاستعمار: "باستمرار، علينا أن نحارب بيد ونحكم بأخرى. ماهي الحماية الحقيقية؟ هي يد من حديد في قفاز ناعم"<sup>64</sup>.

تلك، في نظرنا، هي المرتكزات التي بنت عليها الحماية معاني الدعوة السلمية وفكرة الاستسلام. أما ارتباط المصطلحين "بالسياسة البربرية"، فيتجلى في استخدام المفهومين كيد تحكم (الحماية)، وكقفاز ناعم (السياسة البربرية). أو بصيغة أخرى، بث انطباع إيجابي لدى المغاربة عربا وأمازيغا بمنافع الاستعمار وجدواه، وبأهمية ما أقامه الاحتلال وأنجزه من مشاريع. وهذه مسؤولية ضابط المخابرات أو الضابط الأهلي، خط التماس الأول "للسياسة البربرية" في أوساط الأهالي. وقد رسم العقيد "هيوت"، الطريق الذي ينبغي أن يسلكه ضباط الحماية للشؤون الأهلية لاستقرار الاستعمار بالمغرب قائلا: "لا يعول ضابط المخابرات كثيرا على مساندة الجيش، بل قد يطلب الثبات لسنوات، بأساليب سياسته الأهلية، دون أن يفقد الهيمنة المعنوية التي تمنحها سياسة فعالة"<sup>65</sup>.

## خاتمة

بعد محاولتنا استعراض ملامح "السياسة البربرية" في مغرب الحماية الفرنسية على مستوى الخطاب والمفهوم، نستطيع أن نقدم بعض الاستنتاجات في ثلاث مستويات:

1. إن النظر "للسياسة البربرية" من الزاوية الكولونيالية، يفقد التحليل جزءا من صورته الكاملة، على اعتبار أنه تحصيل حاصل (الغزو يفترض التدبير). فاستكمال الصورة، يحتاج إلى مقاربات مغربية نقدية، ونقطة الانطلاق في هذه العملية، هو تشجيع البحث العلمي. إذ يلاحظ، غياب دراسات مغربية أكاديمية حول "السياسة البربرية" وتأثيراتها حاضرا.

2. إن "السياسة البربرية"، كانت لها القدرة على أن تتطور وتتفاعل مع المحيط الذي تمارس فيه. وبالتالي، فهي قد تعطي نتائج "إيجابية" للمستعمر، إذا توفرت لها الشروط الموضوعية المناسبة. فالتخلف، والتفكك، وضعف الارتباط بالجماعة والمجال

<sup>61</sup> (Conférence sur le Maroc, 1904, p. 24)

<sup>62</sup> (Kann (R), 1921, p. 52)

<sup>63</sup> (Bernard (A), 1922, p. 30)

<sup>64</sup> (Millet (R), 1913, p. 159)

<sup>65</sup> (Huot (Lieutenant-colonel), 1922, p. 181)

(الأرض)، عناصر تساهم في إيجاد بيئة خصبة لتفعيل هذه السياسة. في المقابل، تتعطل هذه الأخيرة وتصبح غير قادرة على النمو والتغلغل في وسط رافض ومتضامن، تعلق فيه قيم الوطنية والتماسك القبلي/العائلي/الأسري.

3. إن "السياسة البربرية"، قد اعتمدت على استثمار ثنائيات في المجتمع المغربي، وتحويلها من عناصر قوة إلى مواطن ضعف. بهدف الوصول بالفرد، إلى مستوى تشكيكه في انتماءه لوطنه ودينه وجماعته. ومثال ذلك، ما تقدمه الكتابات الاستعمارية من ثنائيات: بربر/عرب، عربية/أمازيغية، شرع/عرف، بلاد المخزن/بلاد السبية، سهل/جبل. إنها تقابلات تمس هوية الإنسان المغربي في المستويات العرقية واللغوية والدينية والسياسية والمجالية. كما أن هذه التجاذبات، تعمل على إحداث ما يمكن أن نسميه "عقدة" على المستوى النفسي/الثقافي لدى "الأهلي"، الذي تصوره "السياسة البربرية" ضعيفا أو مظلوما أو مقهورا أو مختلفا أو متميزا. فيسهل على المستعمر الفرنسي، طرح البديل، وهو الإلحاق والاستيعاب والإدماج ضمن مشروع الحماية الفرنسية بالمغرب.

## المراجع المعتمدة

بنعدادة آ.، 2003، الفكر الإصلاحى فى عهد الحماية (محمد بن الحسن الحجوى نموذجاً)، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى.

بوزويطة س.، 2007، الاحتلال العسكرى الفرنسى للمغرب دراسة فى الإستراتيجية العسكرىة 1912-1934، الرباط، منشورات المندوبىة السامىة لقدماء المقاومىن وأعضاء جيش التحرير.

جادور م.، 2011، مؤسسه المخزن فى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، مؤسسه الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامىة والعلوم الإنسانىة، منشورات عكاظ.

احساىن ع.، 2005، "السىاسة الاستعمارىة والأمازىغ"، موسوعة الحركة الوطنىة والمقاومة وجىش التحرير بالمغرب، المجلد الأول، الجزء الأول الكفاح الوطنى فى مواجهة الاستعمار. ص 217-219

العروى ع.، 2009، مجمل تاريخ المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى.

العروى ع.، 2016، الأصول الاجتماعىة والثقافىة للوطنىة المغربىة 1830-1912، الدار البيضاء، المركز الثقافى العربى.

عياش ج.، 1986، دراسات فى تاريخ المغرب، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجدىة.

الفاسى ع.، 2003، الحركات الاستقلالىة فى المغرب العربى، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجدىة.

الهروى ه.، 2010، القبلىة، الإقطاع والمخزن، مقاربه سوسىولوجىة للمجتمع المغربى الحديث 1844-1934، الدار البيضاء، مطبعة إفريقيا الشرق.

Girault (A), *Principes de colonisation et de législation Coloniale*, Librairie de La Société du Recueil Général des Lois et des Arrêts, Paris, 1904

Ageron (Ch.R), *La Politique berbère du Protectorat Marocain 1913-1934*, Revue d'histoire moderne et contemporaine, Armand Colin, Tome XVII, Janvier-Mars 1971



- Ageron (Ch.R), *Politiques coloniales au Maghreb*, Presses Universitaires de France, 1972.
- Bernard Augustin, *Géographie du Maroc. La renaissance du Maroc Dix ans de Protectorat 1912-1922*, Résidence Générale de la République Française au Maroc, Imprimerie Marc Texier, Paris, 1922.
- Bellaire-Michaux, *Conférences faites au cours préparatoire du service des A.I.*, Archives Marocaines, Volume XXVII, Librairie ancienne Honoré Champion, Paris, 1927.
- Julien (Ch-A), *Le Maroc Face aux Impérialismes 1415-1956*, Edition J.A. Paris, 1978
- Dumas (P), *La Justice Française*, La Renaissance du Maroc Dix ans de Protectorat 1912-1922, Résidence Générale de la République Française au Maroc, Imprimerie Marc Texier, Paris, 1922.
- Doutté (E), *Missions au Maroc En Tribu*, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1914.
- De Foucauld (CH), *Reconnaissance au Maroc 1883-1884*, Librairie Coloniale, Paris 1888.
- Fallot Ernest, *La Solution Française de la question du Maroc*, Librairie CH. Delagrare, Paris, 1904.
- Enfantin, *Colonisation de l'Algérie*, P. Bertrand, Librairie, Paris, 1843.
- Guillaume (Général), *les berbères Marocains et la pacification de L'Atlas Centrale (1912-1933)*, René Julliard, Paris, 1946
- Huot (Lieutenant-colonel), *La Politique Indigène*, La Renaissance du Maroc Dix ans de Protectorat 1912-1922, Résidence Générale de la République Française au Maroc, Imprimerie Marc Texier, Paris, 1922.
- Hardy (G), *La Justice Indigène*, La Renaissance du Maroc Dix ans de Protectorat 1912-1922, Résidence Générale de la République Française au Maroc, Imprimerie Marc Texier, Paris, 1922.
- Justinard (L), *Manuel des berbères Marocains*, (Dialecte Chleuh), Librairie Orientale et Américaine, E. Guilmoto, Editeur, Paris.1914
- Leglay (M), *La Marée Berbère*, le Soldat Marocain, Afrique Française, Juin 1935.
- Leglay (M), *L'Ecole Française et la question berbère*, Bulletin de l'enseignement public du Maroc, 1920-1921.
- Marty (P), *La Politique Berbère du Protectorat*, Afrique française, 1925.
- Mouliéras (A), *Le Maroc Inconnu*, Librairie Coloniale, Paris, 1895
- Montagne (R), *Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, Essai sur la transformation politique des Berbères sédentaires (groupe chleuh)*, Librairie Félix Alcan, Paris, 1930.
- Mercier (E), *La question Indigène en Algérie*, Editeur Augustin Challamel, Paris, 1901.
- Pascon (P), *Etudes rurales, Idées et enquêtes sur la campagne marocaine*, Rabat, 1980
- Pierre (P), *La Politique Indigène au Maroc*, Imprimerie Nouvelle, Rabat. (n.d.)
- Piquet (V), *Le Peuple Marocain le Bloc berbère*, Emile la rose, 1925
- René (M), *La Conquête du Maroc, La Question Indigène*, Librairie Académique Perrin, 1913.
- Rinn (L), *Les origines berbères, études Linguistiques et Ethnologiques*, Alger, Adolphe Jourdan, Libraire-éditeur, Imprimeur-Libraire de L'Académie, 1989.
- Rivet (D), *Lyautey et L'Institution du Protectorat au Maroc 1912-1925*, Tome 2, L'Harmattan, 1988.
- Kann (R), *le Protectorat Marocain*, Berger-Levrault, éditeur, Paris, 1921.
- Sainte-Beuve, *La Questions du Maroc : Etude Géographique, Politique et Militaire*, Henri Charles-Lavazelle, Paris, 1903.
- Simon (H), *Les Etudes Berbères Au Maroc et leurs applications en matière de politique et d'administration*, Les archives berbères, vol. I, fascicule 1, Année 1915.
- Conférence sur le Maroc*, Projet A l'usage des Conférenciers, Juillet 1904, Publication du Comité de Maroc, Paris, 1904.